مصطلحات الفنون والصناعات
قضية واجبة الاهتمام

بقلم : أحمد محمد عيسى(*)

تدور هذه الكلمة حول وجوب الدعوة إلى ظهور معجم كبير للمصطلحات الفنية والصناعية، ومفردات الحضارة الحديثة. معجم يلبي حاجة الباحث في عصرنا، لأن المعاجم اللغوية القديمة لا تسعفنا بهذه الحاجة. وأحب في البداية أن أوضح أمرين :

الأول : أنني لست لغويا، وإنما دارس للتاريخ والآثار.

الثاني : أنني أحكي ما أحكي من خلال تجربة شخصية مع المعاجم العربية امتدت، لسنوات طويلة.

لقد كنت أبحث عن ألفاظ ذات دلالات واضحة لكلمات اصطلاحية بالانجليزية، استقرت دلالاتها ومعانيها الدقيقة، في كتبها الأجنبية، التي تتكلم عن التاريخ الإسلامي والفن الإسلامي.

ولا يعنيني هنا أن أتكلم عن عذاباتي الشخصية، بقدر ما يعنيني أن أوضح لعلماء اللغة وللمشتغلين بتاريخ الفنون والحضارة في بلادنا، أن محصلة مفردات اللغة العربية في ذلك المجال قد توقفت عند نهاية القرن الثاني الهجري. على أني وإن كنت لاحظت هذا من خلال ممارستي البحث في المعاجم ـ وأنا أترجم أو أكتب عن فنون الإسلام ـ فقد سبقني إلى القول بهذا : أربعة من الخالدين من رجال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهم الأساتذة : إبراهيم مصطفى ـ أحمد حسن الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد علي النجار، وذلك في المقدمة التي صدروا بها الطبعة الأولى من المعجم الوسيط عام 1960 ـ أي منذ أكثر من 30 عاما. قالوا يرحمهم الله : «إن وضع هذا المعجم كان عملا لا بد منه، لأن المعاجم الأخرى، سواء منها القديم والحديث، قد وقفت باللغة عند حدود معينة من المكان والزمان لا تتعداها. فالحدود المكانية : شبه جزيرة العرب، والحدود الزمانية : آخر المائة الثانية من الهجرة، لعرب الأمصار، وآخر المائة الرابعة لأعراب البوادي».

وهذه المقولة الصادقة، تجعلنا نسأل عن سبب إهمال أثر اختلاط العرب بلغات حضارات الأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام، تلك الأمم التي امتدت أراضيها من حدود الصين إلى الأطلس ومن بلاد أرمينية حتى قلب أفريقية. إنه من الغريب حقا أن يتوقف نمو لغتنا في المجالات الحضارية من القرن الرابع الهجري إلى القرن الخامس عشر الذي نعيشه ؟!

(*) مدير عام مكتبات جامعة القاهرة سابقا ونائب رئيس مجلس الإدارة لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول.

إن الحضارة العربية استوعبت بسرعة فنون البلاد المفتوحة، ووجدت لها عقلا متفهما ومكانا فسيحا في قلوب ومزاج الأمراء، والحكام العرب، ولدى سائر المؤمنين بالإسلام، أما اللغة فإنها رفضت هذا التجاوب وتوقفت عن استيعاب ألفاظ لفنون وصناعات فرضت نفسها على الحكام العرب، وغيرت من أسلوب حياتهم ومذاق حضارتهم.

لقد كان تنقيبي عن بعض الكلمات ينتهي : إما بالوصول إلى العويص، أو الغامض الغريب، الذي يرفضه السمع ؛ وإما بانعدام المقابل العربي للكلمة الأجنبية. وكان هذا الوضع يذكرني دائما بنص غريب ورد في مقدمة القاموس المحيط، يقول :

«ألصِق روانِفَك بالجُبُوب، وخذ المِزْبر بشَنَاتِرك، واجعل حَنْدُورتَيك إلى قَيْهَلى، حتى لا أنغى نغية إلا أودَعْتها بحَمَاطَة جُلْجُلانك».

أي : إلزق عُضْرُطَك بالصَلّة وخذ المِصْطر بأباخِسِك، واجعل حَجْمَتيك إلى أُثْعُباني حتى لا أنبس نبسة إلا وعيتها في لَمْظَة رِباطك».

أي : الصق مَقْعَدتَك بالأرض، وخذ القلم بين أصابعك، واجعل عينيك على وجهي، حتى لا ألفُظ لفظة إلا أودعتها في صميم قلبك.

إن هذا الثراء وهذه الكثرة في المعاني الأدبية، قابلها جفاف وفقر في الألفاظ المتعلقة بالفنون والصناعات ؛ حتى فيما شاع منها بين العرب على عهد الأمويين والعباسيين. وبسبب هذا القصور حرمنا من وصف دقيق لزخارف ظهرت في واجهات قصر عمرة أو قصر المشتى أو في عمائر بغداد أو سامراء وأمثالها.

إن مؤرخ الفن الإسلامي يواجه صعوبات كثيرة حين يتصدى لوصف بِساط، أو تحفة من الخزف أو الزجاج، أو قطعة محفورة من الخشب أو الجص، أو شريحة من قماش تزينها رسوم نباتية أو حيوانية ؛ في الوقت الذي يكون ذلك سهلا ميسورا على الكاتب باللغات الأجنبية ؛ بسبب استقرار المصطلحات في تلك اللغات. إن ما نحتاجه من المعاجم هو سهولة إمدادنا بمفردات تتطابق دلالاتها والمعاني المطلوبة، لا أن نترك لاختيارنا الشخصي فنتعرض بذلك إلى اعتراضات الآخرين.

إن للكلمة في اللغة وظيفة تعبيرية، ولا توصف بأنها شريفة أو سليمة إلا بمقدار صدق دلالتها على المطلوب. وكثير من الكلمات التي تسربت إلى الفصحى، توصف بأنها دخيلة أو معربة أو عامية، مع أنها قد تكون أصدق دلالة على المعنى المقصود. فهل من سبيل إلى فك الاشتباك ؟!

إننا فعلا، بحاجة ماسة إلى إثارة قضية المصطلحات على مستوى الوطن العربي ومجامعه اللغوية، تمدنا هذه المجامع ـ وفي القريب ـ بمعاجم تسد الفجوة بين لغة الكلام ولغة القاموس. لقد خسرت لغتنا بسبب تلك الفجوة حصيلة من الألفاظ الحضارية قد تفرق بين الناس ولغتهم الأصلية. إن هذه القضية قضية ذات أولوية وتسبق قضية أخرى قومية هي قضية تعريب التعليم. ويستحيل أن ننجح في القضية الثانية قبل اكتمال نجاحنا في إنتاج المعاجم الفنية والمتخصصة ذات الشروح الوافية والرسوم الدقيقة ؛ مع التخطيط ليسر تداولها ورخص أسعارها ومراقبة موزعيها الاحتكاريين.

وقد لفت نظري، وأنا أقرأ بعض مراجعي لكتابة هذه الكلمة، توصية وردت في كتاب صدر عام 1965 عن أحد اجتماعات اتحاد المجامع اللغوية العلمية. تقول هذه التوصية : «التوسع في تعريب المصطلحات العلمية ووضع المقابلات العربية المناسبة لها، لا سيما في المستحدث من فروع العلم

والتكنولوجيا ؛ ومتابعة الجهود الكبيرة التي يقوم بها مجمع اللغة العربية في مصر، والمجامع العربية الشقيقة الأخرى في هذا المجال ؛ مع حفز العلماء والباحثين على استخدام هذه المصطلحات وإشاعتها في كتبهم ومؤلفاتهم ودراساتهم الجامعية، والدعوة إلى أن يُذَيّل كل كتاب أو مؤلَّف علمي، بقائمة المصطلحات الواردة فيه ومقابلاتها العربية».

لكن هذه التوصية العظيمة الجليلة مبنية للمجهول : فالفاعل متغيب ونائب الفاعل متهرب والمسؤولية متميعة والنتيجة لا شيء.

إن المعاجم القديمة لم تف بحاجاتنا، وتدفعنا دفعا إلى طلب أنواع من المعاجم الحديثة المتخصصة. وعلى الرغم من وضوح المنهج بالنسبة للغويين القدامى إلا أنهم لم يقتربوا حضاريا حتى من مظاهر حياتهم. فهذا أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) يقول في مقدمة كتابه «معجم في بقية الأشياء» الذي صدر عن دار الكتب المصرية عام 1934 : «معلوم أن لكل معنى لفظا يعبر عنه، فمن جهل اللفظ بَكِمَ المعنى. ولا شك أن من يريد النظر في علم من العلوم، فترك النظر في ألفاظ أهله، لم يصل إلى معرفة معانيهم. ولا نعرف اليوم علما ـ جاهليا ولا إسلاميا ـ إلا وأهله عربيون أو متعربون، يكتبونه باللفظ العربي والخط العربي» اهـ. ومع هذا فلم يتحرك أبو هلال بمفرداته خارج موروثاته وتناسى كل الكلمات الحضارية لعصره، لأنه قرر أن يخاطب ويوجه كتابه إلى طائفة خاصة هي طائفة المترسلين، حيث يقول : «ومعلوم أن من يطلب الترسل وقرض الشعر وعمل الخطب، كان محتاجا لا محالة إلى التوسع في علم اللغة خاصة، لتكثر عنده الألفاظ فيتصرف فيها بحسب مراده، ولا يضيق مراده في مرتاده، وليعرف اللغوي من الكلام فيستعمله، والعامي فيتقيه ويجتنبه». وهكذا فقد كان هذا اللغوي الكبير مشغولا فقط بصناعة الكلام والترسل، لا بالعلم البحت وأدواته. وحين أردت الاستفادة من معجمه في أسماء الأواني وأوصافها لم أجد في كتابه سوى القليل من كثير كنت قد جمعته وسمعت تداوله بين الناس. فقد أورد أبو هلال هذه الأسماء : إناء ـ جرة ـ جفنة ـ حوض ـ دلو ـ صحفة ـ برمة ـ قارورة ـ قدح ـ إداوة ـ مشقّر ـ دسيعة ـ قنينة ـ قدر. وكنت أجمع أنا في أوراقي الأسماء الآتية : ماعون ـ ابزن ـ قعب ـ سطل ـ قصعة ـ كروانة ـ مترد ـ طشت ـ دِسْت ـ زلعة ـ بوتقة ـ ماجور ـ كوز ـ وعاء ـ كوب ـ فنجان ـ إجانة ـ جام ـ جمدانة ـ بلاص ـ طاجن ـ دقية ـ سلطانية ـ زَرَوِيّة ـ حلة ـ طاسة ـ خابية ـ برام ـ لَقّان ـ بَرْنِيّة ـ دورق ـ شفشق ـ أنجر ـ قلة ـ إبريق ـ صحن ـ كنكة ـ مرجل ـ طبق ـ ظرف ـ أصيص ـ زهرية ـ طنجرة ـ قادوس ـ لُحُوقي ـ قزان ـ دن ـ كسرونة. وفي مثل هذه المتاهات يفقد المترجم رأسه ويفزع إلى المعاجم الكلاسيكية ويعود منها بلا جواب !!!

ويتكرر هذا الوضع حين التعرض للكلام عن أنواع الأقمشة، أو أشكال الثياب، أو أطياف الألوان، أو العناصر الزخرفية، أو الحيل المعمارية، أو مثلها. والأمل أن تدخل هذه المشكلات في اهتمامات المجامع اللغوية المعاصرة، وفي حسابات القائمين على رعاية اللغة وصناعة المعاجم من الأفراد والجماعات ؛ مع ضرورة احترام الشائع الاستخدام، الذي ولد وعاش مع الأيام.

لست داعيا إلى سيادة العامية، ولكنني أدعو إلى أن يتسع صدر الفصحى إلى احتواء ألفاظ حضارية لم تكن تعرفها العربية في أول عهدها، وأصبح من الضروري أن تشتمل عليها، حتى لا تحدث غربة بين الأجيال الصاعدة وبين لغتها. يقول أستاذنا الكبير الدكتور إبراهيم بيومي مدكور رئيس

المجمع اللغوي بالقاهرة، ورئيس اتحاد المجامع العربية، في تقديمه للمعجم الوسيط، الذي أصدره مجمع القاهرة عام 1960 : «والمعجم العربي القديم، على غزارة مادته وتنوع أسلوبه، أضحى لا يواجه تماما حاجة العصر ومقتضياته، ففي شروحه غموض، وفي بعض تعاريفه خطأ، وفي التبويب لبس. وأبى أصحاب المعاجم إلا أن يقفوا باللغة عند حدود زمانية ومكانية ضيقة، فَفَقَدَت كثيراً من معالم الحياة والتطور. وما المعجم إلا أداة بحث، ومرجع سهل المأخذ، فينبغي أن يكون واضحا دقيقا، مصوّرا ما أمكن، محكم التبويب. ومعاجمنا العربية القديمة لا تتمشى في منهجها، مع مبادىء فن المعاجم الحديث، ففي الرجوع إليها عناء ومشقة، وفي عرضها حشو واستطراد.» إهـ.

و لا أحتاج في تدعيم ما أذهب إليه، لأقوى من صوت ولا أحسن من رأي رئيس اتحاد المجامع اللغوية العربية. وكل ما أرجوه هو سرعة تنفيذ المطلب الذي أعلنه قبلي مجمعيون كثيرون وعلى رأسهم رئيس اتحاد المجامع العربية. إن جماهير المتكلمين بالعربية والمشتغلين بالموضوعات المتخصصة والعلوم الحديثة، يستعجلون تحرك المجامع العربية لإمدادهم بالمعاجم الحديثة وبالمواصفات التي حددها أستاذنا الدكتور مدكور. فبهذا وحده يكون المجمعيون، وليس فقط بانتسابهم لتلك المجامع.

يقول الدكتور حسين نصار في أحد فصول كتابه «المعجم العربي» (جـ 2، ص 716)، وتحت عنوان : **المعاجم التي نحتاجها** : «والعربية التي دَوّنها أصحاب المعاجم، عربية خاصة، لم يتكلمها إلا قبائل قليلة من شبه الجزيرة الفسيحة الأرجاء، وهي التي سميت (العربية الفصحى). أما العربية (العامة) فقد فُقِدت منا إلى الأبد ـ فيما يبدو ـ ومن الأسباب : إهمال المولّد وعدم اعتباره من اللغة، حتى ضاع علينا كثير من الألفاظ والمعاني التي ابتكرها العباسيون في مظاهر الحضارة الجديدة التي عاشوا فيها. فجعلوا اللغة لا تساير ركب الحياة واتهمت بالتحجر». ثم يقول : «أما المولّد فهو الأمر الذي اختلفت فيه آراء الباحثين اختلافا كبيرا، ويمثله : هذا النقاش الطويل الذي دار بين الأستاذ الدكتور أحمد أمين والشيخين محمد الخضر حسين وإبراهيم حمروش في المجمع اللغوي بالقاهرة (مجلة المجمع 6: 87). إذ ذهب الأول إلى أن اللغة العربية لغتنا، فيجب أن تخضع لحياتنا، ويجب أن تسايرنا في تقدمنا، وتكون أداة طيعة لتطورنا، لا أن تقسرنا على أن نرجع إلى الوراء ونعيش عيشة القرون الوسطى».

أنا لا أثير جدلا مع المجامع اللغوية، فيها العلماء الأعلام القادرون على العطاء، ولكنني أصرخ صرخة الضعيف المستنجد بالأقوياء، وأستعجل تنفيذ ماورد في توصيات اجتماعاتها، وأستكثر أن يكون قد مضى من عمر تلك المجامع ـ أو بعضها ـ أكثر من نصف قرن من الزمان، وهي لا تزال تدرس وتتناقش. إن حركة عصر الإبل لا تنفع مع سرعة عصر الصواريخ، فالزمن يسير والحضارة تتطور واللغة الراسخة القوية لا تنتحر إذا طعّمت بالجديد.

ولكي يكون ما أشكو منه واضحا لقارىء هذه الورقة، أثرت أن أُلحِق بها نماذج مصورة من ثلاثة من المعاجم القديمة التي رجعت إليها وهي : صفحات من كتاب «معجم في بقية الأشياء» لأبي هلال العسكري (ت. 395 هـ)، وصفحات من كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي (ت. 429 هـ)، وصفحات من كتاب «المخصص» لابن سيده (ت. 458 هـ)، ليرى القارىء بنفسه مدى سعة الفجوة التي تفصل بين طبيعة المعاجم القديمة وبين احتياجات حياتنا المعاصرة، وليدرك في يسر مدى معاناة الباحث الحديث حين يواجه ـ بأمانة ودقة ـ

ترجمة الموضوعات الحديثة التي تتعلق بالفنون والحضارة الإسلامية.

ولا أخفي أنني حين تصديت للاشتغال بترجمة الألفاظ الحضارية المتعلقة بالفن الإسلامي، وجدت أمامي حصيلة كبيرة من الجهود المحمودة والمشكورة. جهود بذلها أناس أصحاب اقتدار وإصرار للتعرف على الغامض والغريب، والدخيل والعامي، بهدف الوصول إلى ألفاظ محررة، دقيقة الدلالة، يستقيم بها الفهم، وتصحّ بها المعرفة. ولاخلاف في أن لغتنا تواجه اليوم متجددات مراحل عصر النهضة الأوربية وعصر البخار وعصر الكهرباء وعصر تفجر المعلومات والشرائط الممغنطة وعصر الطيران بين الكواكب والأقمار الصناعية، ولا بد لسرعتنا من أن تتناسب مع سرعة العصر.

وفيما يلي، سوف أستعرض في إيجاز، بعضا من الجهود الشخصية لعدد من المعاجم، كانت ضمن مراجعي وأنا أعد نفسي لإخراج طبعة جديدة من معجم «مصطلحات الفن الإسلامي». وسوف أتناول في هذه العجالة، تقديم تلك المعاجم بحسب ظهورها طباعيا.

الكتاب الأول : أصول الكلمات العامية

وهو لمؤلف مصري، إسمه حسن توفيق، كان يدرس العربية بمدرسة برلين للدراسات الشرقية، ثم درَّس بعدها في مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة. صدر هذا الكتاب عام 1899. ويقول مؤلفه في مقدمته : «إن أيام عهدي بتدريس اللهجة العربية المصرية بالمدرسة الشرقية ببرلين، دعتني إلى البحث في الألفاظ والتراكيب التي يستعملها المصريون في التحاور، فكنت أجد الكلمات التي نلهج بها : إما عربية محضة، لكن اعترى الكثير منها القلب أو الإبدال أو التصحيف أو التحريف ؛ أو غير عربية، وهي التي تناولها العربي من أفواه القبط منذ فتح البلاد على يد العرب، أو التي أدخلها الدخلاء على اختلاف لغاتهم، والتي جاءت بها الدول التي حكمت مصر بعد العرب». ثم يقول : «وبعد زمن ليس بالقليل وجدتني قد وقفت على كثير من أصول هذه الكلمات، إلا أن بعضها يحتاج إلى زيادة التحقيق والتدقيق». وبلغ عدد كلمات هذا الكتيب 106 كلمات عامية، مما جرى على ألسنة الناس في مصر. ويلاحظ أن حظ المفردات الفنية بهذا العمل قليل جدا.

الكتاب الثاني : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية

لمؤلف إسمه طوبيا العنيسي. وضع عام 1929، وصدر عن دار العرب للبستاني بالقاهرة عام 1965/64، بإشراف الأب جبريل العشقوتي. ويقول المؤلف في مقدمته : «على أنني في هذه الأيام عند تفتيشي عن الكلمات في كتب اللغة ـ خاصة المطبوعة حديثا ـ كانت تمر بي بعض الألفاظ يسميها صاحب المعجم فارسية، مع كونها حقيقة يونانية. وبعكس ذلك كنت أرى بعض كلمات يزعم صاحب المعجم أنها يونانية مع أن فارسيتها ظاهرة. كما كان يُطلق إسم العجمة على كل لفظ ليس من وضع العرب». ثم يقول :«وسدأ لهذه الثُّلْمَة وممالأة للمتشوّق على إدراك مبتغاه، عنيت بجمع نحو ألف لفظة.... ولزيادة الإيضاح رسمت الألفاظ الفارسية والتركية والآرامية والعبرانية.. بأحرف عربية، والكلمات اليونانية والأوربية كتبتها بأحرف لاتينية تسهيلا لكشفها... على أن رد الدخيل إلى أصل لغته أرهقني وأضاع وقتي ولقيت منه عنتا شاقا، لأن العرب من دأبهم وضع الدخيل في قالب عربي بعد تصحيفه وتحريفه أو بإسقاط بعض حروفه وتبديلها، أو بإضافتهم إليه بعض أحرف عربية». ولكن هذا

الجهد الطيب لم يضف كثيرا في مجالات الفنون هو الآخر.

الكتاب الثالث : المحكم في أصول الكلمات العامية

للمرحوم الطبيب الدكتور أحمد عيسى بك، صدر هذا الكتاب في القاهرة عام 1939 وجاء في مقدمته : «ولقد تيسر لي جمع الكثير من مفردات العامة، وعملت على تحقيق أصولها وترتيبها في هذا السِّفْر (252 صحيفة من الحجم المتوسط)، فذكرت اللفظ العامي أولا وبجانبه تفسيره عند العوام، ثم أتيت بالأصل الفصيح وذكر تفسيره في معجمات اللغة كاللسان والتاج»... ويحتوي هذا المعجم على أكثر من ألفي كلمة، تضم الكثير من الألفاظ الشائعة في الفنون والصناعات.

الكتاب الرابع : «لُعَب العرب»

بقلم المحقق المرحوم العلامة أحمد تيمور باشا، صدر عن لجنة نشر المؤلفات التيمورية بالقاهرة عام 1948. جمع المؤلف في كتابه هذا حول 130 لُعْبة من لُعَب العرب. ويقول الشيخ خليل ثابت المدير العام لجريدة المقطم المصرية رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية «إن كتاب (لُعب العرب) خلقه مؤلفه خلقا مما جمعه من شتات المؤلفات وما استنبطه من بطون المراجع». هذا ويضم الكتاب ترجمة طيبة وتاريخا مختصرا للأسرة التيمورية وجهودها العلمية.

الكتاب الخامس : رسالة لغوية عن «الرتب والألقاب المصرية».

جمع كلمات هذا الكتيب المرحوم العلامة أحمد تيمور، وصدر بالقاهرة عام 1950، وهو كتاب مفيد حقا لكن مؤلفه لم يعن كثيرا بالمصطلحات الفنية.

الكتاب السادس : «معجم المصطلحات الأثرية»

وهو من إعداد الأمير يحيى الشهابي (بالفرنسية والعربية)، صدر عام 1967 عن مجمع اللغة العربية بدمشق، واشتمل على 351 مدخلا تتعلق كلها بعلم الآثار. وفي ثنايا النص بعض الصور التوضيحية، مع كشاف بالكلمات العربية. ويقول يحيى الشهابي في مقدمته : «ووضع المصطلحات العربية، عمل شاق، لا يتيسر لكل إنسان، فالمرء يحار في كل لفظة بين اتّباع إحدى قواعد الاشتقاق والتضمين، والنحت، والتركيب المزجي، واستعمال المولّد والعامي ؛ ويحار أيضا فيما يجوز أو لا يجوز الركون إليه من الكلم». ثم يقول :«وعلم الآثار هو أحدث العلوم التي دخلت البلاد العربية ومن أضيقها انتشارا بين المثقفين. فقد دخل هذا العلم وجلب معه ـ كسائر العلوم ـ مشاكل مصطلحاته، وأوقع العاملين به في حيرة من أمرهم، إذ لا مرجع لهم يرشدهم ويوحد مصطلحاتهم، لذلك راح كل منهم يضع ما يروق له من المصطلحات العربية، حتى أصبح لكل مسمى أسماء بعضها غير واضح قد يلتبس معناه على الباحثين ؛ وأدى ذلك إلى البلبلة والتشويش بين هؤلاء الباحثين. ويتحمل وزر ذلك المطالع والمستفيد».

الكتاب السابع : «معجم مصطلحات الفنون»

للأخ الفاضل الدكتور عفيف بهنسي، وجاء في مقدمته للطبعة الأولى الصادرة عام 1972، المنشورة ضمن الطبعة الثانية الصادرة عام 1981، ما يلي : «أما الفنون فإنه لم يكتب لها ـ بعد أن انفردت ـ معجم خاص، ولم تحظ إلا بمحاولات متفرقة، لم يتوفر فيها التنسيق والتكامل. لهذا وجدت لزاما علي، وقد انصرفت زمنا للتأليف والترجمة في مجالات الفن، أن أقوم بأداء قسط من واجبي الثقافي والقومي ؛

فأجمع أكثر المصطلحات الفنية انتشارا في معجم واحد : يضم الكلمة الفرنسية ومقابلها الانجليزي ثم الترجمة العربية الموافقة لذلك، وبالعكس.» ... «ومع اعترافي بقوة الأواصر التي تربط الفنون جميعا، فإنني اكتفيت في معجمي هذا بحصر المفردات التي تتعلق بالفنون التشكيلية أي الرسم والنحت والحفر والتصوير والزخرفة. ولم يكن لي بد من إضافة المصطلحات الآثارية والمعمارية التي تتعلق بالفنون التشكيلية، والتي لها فيها معنى وتسمية خاصة».

وهكذا تكون المدرسة السورية قد أكدت لنفسها الريادة في مجال نشر المصطلحات الأثرية والفنية، بظهور معجمي يحيى الشهابي وعفيف بهنسي. وليست هناك من ملاحظة قبل هذين المعجمين سوى عدم تغطية النصوص بالرسوم اللازمة وعدم توافر الشرح الكافي للمصطلح الذي يجعله أكثر وضوحا لدارس هذه العلوم الحديثة في بلادنا.

الكتاب الثامن : «معجم ألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون»

صدر هذا الكتاب عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1980، ويضم 925 مصطلحا، مداخلها الأساسية باللغة العربية، مع مقابلها بالفرنسية والانجليزية، وهي تخدم موضوعات : الثياب ـ المأكولات ـ المنزل والأدوات المنزلية ـ الأماكن وما يتعلق بها ـ المكتب وأدواته ـ المركبات وما يتعلق بها ـ الحرف والصناعات والمواد المستخدمة فيها ـ التربية الرياضية ـ ألفاظ متنوعة ـ الفنون التشكيلية ـ الرقص والموسيقى ـ السينما.

قدم لهذا الكتاب عضو المجمع المرحوم الأستاذ بدر الدين أبو غازي وقال في مقدمته : «استأثرت ألفاظ الحضارة بجهد تيمور (يقصد محمود تيمور بن أحمد تيمور باشا) واقترن إسمه بألفاظ الحضارة منذ استقبله مجمع الخالدين عام 1950. وكان يترصد لكل جديد من الكلم ويلاحق ما يظهر من ألفاظ في الحياة العامة ويحله محل النظر والتمحيص، فقدم حصادا كبيرا شارك فيه معه مجمعيون من زملائه، وأضاف صفوة من أعضاء المجمع في البلاد العربية الشقيقة، وسرى في هذا الميدان من ميادين عمل المجمع نشاط كبير ظل متصلا بعد رحيل تيمور، حين تولى ألفاظ الحضارة المؤرخ الجليل الأستاذ محمد رفعت... ثم أعقبه الأستاذ محمد خلف الله أحمد، الذي أعطى الكثير من صفاء ذهنه وطبيعته السمحة وبصيرته المستنيرة، فيسر للجنة أعمالها وأتاح لها أن تنجز الكثير».

وأكتفي بالتعليق على هذا العمل وهذه المقدمة بكلمة خلاصتها : إن الجهد الذي قام به محمود تيمور وشاركه فيه جمهرة كبيرة من المجمعيين، امتد من 1950 ـ 1980 أي أنه استمر ثلاثين عاما أثمرت 925 كلمة موزعة على ما يقرب من 20 موضوعا، فكم نحتاج من القرون لننتهي من رصيد 15 قرنا مضت !!!؟

الكتاب التاسع : «مشروع معجم لمصطلحات الآثار»

والذي اطلعت عليه هو مسودة المشروع التي وزعها مكتب تنسيق التعريب في العالم العربي، الكائن بمدينة الرباط بالمغرب، والتابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أحد أجهزة الجامعة العربية. تضم مسودة المشروع 2862 كلمة بالانجليزية مع مقابلها بالفرنسية، ثم ترجمتها بالعربية. وكلها متصلة بعلم الآثار وتوابعه. وقد استغرق هذا الحصر جهود خمسة عشر متخصصا من المغرب وفلسطين والسعودية ومصر والأردن والعراق وابتدأ العمل عام

1984 وانتهى عام 1986. وكانت ملاحظتي حين طَلَبَ منّي مجمع اللغة العربية بالقاهرة إبداء الرأي فيه، باعتباري أحد خبراء وأعضاء لجنة مصطلحات التاريخ والآثار بالمجمع، هي أن منهج العمل لا يفي بالمطلوب : فالمداخل غير مشروحة ولا مرسومة وهذا أمر ضروري في المعاجم الحديثة. لكني لا أعلم ما انتهى إليه هذا المشروع الآن ولعلنا نتدارك قصوره قبل ظهوره.

الكتاب العاشر : «معجم مصطلحات الفن الاسلامي»

صدر عام 1988، عن مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول وهو من وضع أحمد محمد عيسى، خبير المركز، ويضم 650 كلمة بالإنجليزية ومقابلها بالعربية مع شرح للمصطلح. والكلمات كلها ثمرة ترجمة كتاب بالإنجليزية من تأليف الدكتور أوقطاي أصلان آبا عنوانه Turkish Architecture (فنون الترك وعمائرهم). وكما يظهر من عنوان الكتاب أن كلماته الاصطلاحية تضم العمارة والفنون الفرعية الأخرى كالخزف والأبسطة والنسيج والتصوير والنحت والخط وغيرها. ولم تكن أمامي ـ وقت الاشتغال بالترجمة ـ فرصة للتفكير في إضافة الرسم إلى الشرح، لكن نفاد هذه الطبعة في وقت قصير شجعني على أن أجمع شمل نفسي لإخراج طبعة جديدة مزيدة وأكثر في كلماتها وأوفي في شرحها لتكون أقرب لفهم القارىء.

الكتاب الحادي عشر : «المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية».

صدر هذا الكتاب عام 1990 عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وبإعداد مشترك من الدكتور/محمد محمد أمين والسيدة/ ليلى علي إبراهيم. وجاء التركيز في هذا العمل على المصطلح الوارد في بعض الحجج الشرعية المملوكية بين عامي 1250م ـ 1517م. والمداخل كلها بالعربية ومشروحة شرحا كافيا ؛ ومعظمها يتعلق بالمصطلحات المعمارية. أما عدد مداخل هذا المعجم فيصل إلى 653 مدخلا بعضها شمله الرسم. ورغم أن هذا العمل صادر عن الجامعة الأمريكية إلا أنه التزم واكتفى بالمداخل العربية ولم يضع مقابلها بالإنجليزية. وجاء في مقدمة هذا الكتاب، ما يلي : «ومع تقدم الدراسات الوثائقية والاهتمام بدراسة الوثائق المحفوظة بدور الأرشيف المختلفة، ظهر جليا مدى الترابط بين هذه الوثائق وبين العمارة الإسلامية، فقد اشتملت الوثائق على اختلاف موضوعاتها، على أوصاف دقيقة للعناصر المعمارية لمؤسسات دينية، ومدارس، وبيمارستانات، وقصور، وبيوت، ... إلخ... واستخدمت هذه الوثائق العديد من المصطلحات المعمارية لما كان مستخدما وقتئذ. كما ورد بها الكثير من الألفاظ الاصطلاحية الخاصة بصناعة البناء، ومواده المختلفة من : حجر ورخام ومعادن وأخشاب ؛ وما هو خاص بطريقة البناء وطريقة التسقيف، والتغطية بالحجر أو الخشب ؛ والدهانات، والألوان، والنجارة، والخراطة، والمعادن، والكتابة على هذه المواد، وما يصاحب ذلك من زخارف.

وهكذا أصبح من الضروري لدراسة العمارة الإسلامية في قطر من الأقطار الإسلامية، أو في عصر معين، الرجوع إلى ما حفظ لنا من وثائق هذا القطر وفي ذلك العصر. وهنا تبرز أهمية وضع معجم لمصطلحات العمارة الإسلامية، طبقا لما ورد في الوثائق حتى يمكن فهم ما ورد بها من مصطلحات والتعرف على العناصر المعمارية المختلفة في العصر موضوع الدراسة» إهـ.

وأخيرا... أختتم استعراضي لجهود عدد من السابقين المشتغلين بتحقيق المصطلحات، بالإشارة إلى

عمل قمت به، وأتحمل أنا وحدي وزر ما قد يكون من أخطاء. فبعد اشتغال بقضية المصطلحات الفنية من أيام الدراسة وإلى الآن ؛ وبعد الرجوع إلى العشرات من المعاجم والموسوعات ـ عربية وإفرنجية ؛ وبعد ممارسات سابقة من النشر في هذا الموضوع ؛ وبتشجيع دافق دافىء من الأخ الصديق الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي مدير عام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ؛ وبعون من الله وتوفيقه : نشطت الهمة، وصح العزم على إخراج طبعة جديدة تضم قرابة 1400 مصطلحا خاصة بالفنون الإسلامية يصدرها مركز الأبحاث باستانبول هذا العام (1993).

وتشتمل هذه الاصدارة الموسعة على رسوم دقيقة تشرح مصطلحاتها، قام بعملها المهندس الفنان محمود الطوخي، خبير ترميم الآثار الإسلامية بالهيئة العامة للآثار بالقاهرة. ذلك بالإضافة إلى مقدمة مسهبة عن الاصطلاح والمصطلحات وحاجتنا إليها، وقائمة بكل المراجع العربية والأجنبية التي تولّد منها هذا العمل.

ومهما كان الجهد، فهو جهد المقل وعطاء الفقير. ولا أقول فيه إلا ما قاله الفيروزابادي في ختام قاموسه المحيط : «إنني عنيت بجمعه وتأليفه، وتهذيبه وترصيفه، ولم آل جهدا في تلخيصه، وتخليصه، وإتقانه، راجيا أن يكون خالصا لوجه الله ورضوانه». وغفر الله لمن غفر لي وتجاوز عن هفواتي.

* * *